المعلم الجديد
المجلد ١٤
ج ٢
١٩٥١

المعلم الجديد

السنة الرابعة عشرة

الجزء الرابع

المعلم الجديد

مجلة تربوية ثقافية

تصدرها وزارة المعارف العراقية

تنبيهات

تصدر المجلة ست مرات فى السنة .

تنشر المجلة ما توافق عليه من المباحث التى تتفق هى وخطتها .

للمجلة الحق فى النشر أو عدمه ، ولا يعاد البحث الى صاحبه اذا لم ينشر .

ان ما يرسل به للنشر فى المجلة يجب أن يكون خاصاً بها ، ولم يكن قد نشر قبلا .

يجب أن تكتب المباحث بالحبر وبخط واضح وعلى وجه واحد من الورق .

البدل السنوى لمشاركة معلمى ومدرسى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ومنتسبى الوزارة فى ملاك الادارة (٢٥٠) فلسا وللطلاب (١٥٠) فلسا .

البدل السنوى لمن يرغب فى المشاركة من غير المنتسبين الى وزارة المعارف (٥٠٠) فلس فى داخل العراق و (٧٥٠) فلسا فى خارجه .

تعنون المكاتبات بالعنوان الآتى :

بغداد — وزارة المعارف — سكرتير تحرير مجلة المعلم الجديد

مسجلة بدائرة البريد برقم ٧٣

مطبعة التفيض — بغداد

ثبت الجزء

منطق العلم والحوادث التاريخية

بقلم : الدكتور نوري جعفر
مدرس في التربية بدار المعلمين العالية

يستطيع المرء ، اذا ما أغفل الدقـة العلميـة في التعبير وقتيا ، أن يعرف التاريخ بأنه سجل لما وقع من الحوادث . ولا يشترط في هذا السجل أن يكون مكتوبا بالشكل المعروف . اذ ان التاريخ، بالاضافة الى ذلك، يشتمل على جميع الآثار التي يتركها وقوع الحوادث على صفحة الطبيعة وفي ثنايا المجتمع .

ينقسم المؤرخون ، في تفسير معنى كلمة حوادث ، من حيث تعـلق وقوعها بموضوع التاريخ ، الى قسمين : يميل القسم الأول الى اعتبارها دالة على جميع الحوادث الاجتماعية من عسكرية وسياسية واقتصادية ... الخ

ويميل القسم الآخر من المؤرخين الى مخالفتهم فيما ذهبوا اليه ويدخل ما يسمى بالحوادث الطبيعية كالزلازل والامطار والرياح وغيرها ضمن حقل التاريخ . فالتاريخ بنظر هؤلاء لا يهتم بنوع الحادثة وانما ينصب اهتمامه على مجرد حدوثها . وان الفرق بين الحوادث الاجتماعية والحوادث الطبيعية بنظرهم انما هو فرق في اسباب وقوع الحادثة ليس الا . فالحوادث الاجتماعية في العادة ناتجة عن اسباب اجتماعية . اما الحوادث الطبيعية فغالبا ماتكون ناتجة عن اسباب لا علاقـة لها برغبة الانسان وارادته . ويختلف تفسير اسباب الحوادث الطبيعية باختـلاف المفسرين ونظرتهم للتـاريخ . فيعزوها بعضهم الى قوة خفية عاقلة كبرى تهيمن على العالم يسميها هيكل العقل المطلق . ويعزوها آخرون الى قوة ميكانيكيـة غير عاقلة وليست لهـا ارادة ويدعونها الطبيعة . بينما يحاول قسم آخر من الباحثين ان يفسرها تفسيرا علميا فيرجعها الى عوامل كثيرة ومعقـدة ولكنهـا ليست عاقلة من جهة ولا ميكانيكية عمياء من جهة أخرى . وانما هي ناتجة عن تعـامل قوى كثيرة متداخلة لا يسهل تحليلها او فصلها عن بعضها ولكن لا يصعب فهمها اذا ما

استعان الباحث بالقوانين العلمية وخواص المواد من الوجهة الجغرافيـة والفيزيائية والجيولوجية .

واذا سلمنا بأن التاريخ هو سجل لما حدث من الوقائع جاز لنا القول ان المؤرخين في العادة يؤرخون حوادث التاريخ بعد وقوعها ـ أي أنهم يؤرخون حوادث التاريخ بطريقة غير مباشرة . اللهم الا من نسميهم عادة شهود العيان وهم قليلون . فالمؤرخ اذن لا يصف ما وقع وانما هو يستدل على وقوعه بأن يلجأ الى جمع المعلومات التي تساعده على التوصل الى معرفة ما وقع . والمصادر التي يلجأ المؤرخ اليها هي مخلفات السلف من كتب وقصص وتماثيل وصور ومخطوطات ومبان وجسور ومعابد وهياكل ورمم وما شاكلها . وتقسم المصادر التي يستقي منها المؤرخ معلوماته التاريخية الى قسمين يدعى القسم الاول بالتقاليد . والقسم الثاني بالبقايا او المخلفات . والتقاليد اما ان تكون مكتوبة او مروية او أن تكون مكونة من رسوم وخرائط وغير ذلك . اما البقايا فهي (كما يدل عليها اسمها) متعلقة بما تبقى من مبان وطرق وجسور واشباهها . وتقسم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في بحثه من جهة ثانية الى قسمين : مصادر أساسية ومصادر ثانوية . تمتاز المصادر الاساسية بأنها تعبر عن حوادث التاريخ تعبيرا مباشرا . فاذا كانت تلك المصادر مكتوبة اشترط فيها ان يكون كاتبها جزءا من الحادثة التي وصفها أو أنه كان قد شاهدها مشاهدة عيانية[1] وقل الشيء نفسه عن الحادثة اذا كانت متناقلة بطريقة شفوية . اما المصادر الثانوية فهي التي ينقلها شخص عن آخر .

يتبع المؤرخون في تحليلهم للمصادر التاريخية ودراستها ما يدعى بالطريقة التاريخية . ولهذه الطريقة ركنان متلازمان ليس من السهل فصلهما غير أن التمييز بينهما ممكن . فهما كوجهي العملة يستطيع المرء تفريقهما عن بعضهما الا أنه يستحيل فصلهما مالم يحدث الباحث تغييرا أساسيا في قطعة العملة التي يجري عليها ذلك التغيير . يدعى الركن الاول منهما بركن النقد والركن

(١) ليس كل شاهد عيان مؤرخا ثم ان شاهد العيان لا يرى هذه الحادثة كلها بل يلاحظ اجزاء متناثرة منها .

الثاني بركن التوحيد او التلاؤم . والنقد على نوعين . نقد داخلي ونقد خارجي . يتناول النقد الخارجي البحث في صحة المصدر ومدى الثقة التاريخية في الاعتماد عليه . ولكي يكون النقد الخارجي مستوفيا شروطه الاساسية يلجأ المؤرخ في العادة الى محاولة الاجابة على اسئلة كثيرة منها : هل هذا المصدر أساسي ؟ هل هو ثانوي ؟ واذا كان المصدر اساسيا فهل طرأ عليه شيء من التغيير ؟ هل هناك طعون في صحة المصدر ؟ هل المصدر منتحل ؟ وما عوامل ذلك الانتحال ؟ هل ان المصدر مدسوس فيه ؟ وما عوامل ذلك الدس ؟ اما النقد الداخلي فيبحث في محتويات المصدر بعد تقرير صحته . ولكي يكون مستوفيا شروطه الاساسية يحاول المؤرخ الاجابة عن اسئلة كثيرة منها . ما ميول المؤرخ العامة (دينية وسياسية ؟) لماذا أصدر المؤرخ حكما معينا في قضية معينة ؟ هل ان المؤرخ منصف في حكمه هذا ؟ هل أن المؤرخ يصف الحوادث التاريخية وصفا دقيقا ام أنه يصدر أحكاما معينة عليها او على بعضها ؟ هل هناك عوامل خفية يمكن التوصل اليها لمناقشة رأي المؤرخ في قضية من القضايا ؟ هل يمكن القول بأنه لو كان المؤرخ يميل الى طائفة دينية غير طائفته أو لو كان يحمل رأيا سياسيا غير رأيه او لو أنه عاش في ظروف غير الظروف التي عاش فيها لكان من المحتمل ان تختلف أحكامه التاريخية ؟ ما موقف السلطة الحاكمة في حينه من القضية التي يعالجها المؤرخ ؟ هل هناك حرية للرأي في زمانه يمكن الاطمئنان اليها في بحث القضايا التي لا تتفق والسياسة العامة للسلطة الحاكمة ؟ هل المؤرخ أديب يميل الى المبالغات ؟ هل ان كلماته محدودة المعاني أم أنها تحمل أكثر من معنى واحد ؟ هل ان معاني بعض الكلمات التي يستعملها المؤرخ لا زالت سائدة الآن أم أنه طرأ عليها بعض التغيير ؟ هل المؤرخ يعرض أكثر من وجهة نظر واحدة في القضايا التاريخية ويناقشها أم أنه يكتفي بعرض ما يعتقده صوابا ؟ هل يعرض رأيه على القارىء بشكل جازم لا يحتمل الخطأ ؟ أم أنه يعرض ذلك الرأي بشكل فرضي قابل لأن يوصف بالخطأ والصواب ؟

اننا بمحاولتنا الاجابة عن الاسئلة المارة الذكر نسعى الى تقرير مركز

٣٣٦

تاريخ من الناحية العلمية • ينقسم المؤرخون فى هذا الصدد الى قسمين ، م بعضهم التاريخ علما كسائر العلوم الطبيعية والاجتماعية • بينما يخالفهم خرون فيجردون هذا الموضوع من صفته العلمية • وسبب ذلك بنظرنا هو لاف الفريقين فى معنى كلمة علم (١) • ومن طريف ما يذكر فى هذه سبة هو الضجة العلمية الكبرى التى أثارها تصريح الاستاذ ج • ب • بورى الكاتب الانكليزى المعروف عام ١٩٠٣ القائل (ان التاريخ علم لا اكثر ولا أقل) • اذ تصدى لهذا التصريح كثير من المشتغلين فى العلوم الطبيعية ومن الادباء وعلماء الاجتماع فأوسعوه نقدا وتحليلا • ادعى الفريق الاول (وهم المشتغلون بالعلوم الطبيعية) بان التاريخ فى الواقع أقل بكثير من ان يكون علما • وخالفهم الفريق الثانى (وهم الادباء والمشتغلون بالامور الاجتماعية) وادعوا بأن التاريخ فى الواقع أكثر بكثير من ان يكون علما كسائر العلوم الطبيعية • واذا ما قرأنا بين سطور هذين التصريحين تبين لنا ان الفريقين قد نفيا عن التاريخ الصفة العلمية ولكنهما أختلفا فى طريقة ذلك النفى • فالقول بأن التاريخ أكثر من علم ينفى عن التاريخ صفته العلمية عن طريق اضافة ما لا يستطيع العلم تحمله • ويصدق الشىء نفسه ، من ناحية سلبية ، على القول الآخر (ان التاريخ أقل بكثير من أن يكون علما) • وحجة الفريق الاول هو القول بأن الحقائق التأريخية ليست ثابتة ثبوتا علميا وأنه ليس بالامكان ملاحظتها ملاحظة مباشرة او اجراء تجارب عليها • وهم يزعمون كذلك بأن كل حادثة تاريخية شىء قائم بذاته • وقد تتشابه الحوادث غير ان الحادثة الواحدة لاتعيد نفسها تماما • وان القول الذى ذهب مذهب الامثال على السنة بعض الناس من (ان التاريخ يعيد نفسه) قول لا يؤيده الواقع • فالتأريخ فى الواقع ، من وجهة نظر هؤلاء ، لا يعيد نفسه ، وانما قد تتشابه بعض حوادثه تحت ظروف معينة • ولا يؤمن هذا الفريق من الناس بالقول بأن التاريخ يتبع قوانين منظمة ثابتة كما هى الحال فى الحوادث العلمية • وعلى هذا فهم يقولون باستحالة التنبوء بالحوادث

(١) راجع مقالنا المنشور فى الجزء السابق (شباط ١٩٥١) من هذه المجلة والذى عنوانه « العلم : منطقه وأثره فى الحياة » •

التأريخية قبل وقوعها تنبوءا علميا مضبوطا . واذا تحقق ما توقعه بعض الناس فان ذلك على حد قولهم لا يدل على ان التأريخ يسير على وفق قوانين معينة وانما هو شيء من قبيل الحدس والتخمين - يخطأ أحيانا ويصيب أحيانا أخرى - . وهم يقولون كذلك ان الحوادث التأريخية متداخلة ومعقدة لا يسهل فصلها عن بعضها بالدرجة التي يسهل فيها فصل الحقائق العلمية عن بعضها . وليس هناك ، بنظرهم ، اتفاق عام بين المؤرخين يتعلق بترتيب الحقائق التأريخية حسب أهميتها من حيث أثرها في تغيير علاقات الافراد والجماعات ، وان لعنصر المصادفة دخلا كبيرا في تغيير تأريخ أمة من الامم من الوجهتين الداخلية والخارجية (أي من حيث علاقة أفرادها ببعضهم ومن حيث علاقة هؤلاء بأفراد الامم الاخرى) . والخلاصة ان التأريخ على حد زعم الاستاذ و . س . جيفونز أحد انصار هذا المذهب ليس علما وان « فكرة اعتباره علما لفكرة سخيفة جدا » .

اما الفريق الثاني (وهم الادباء والمشتغلون في الامور الاجتماعية) فيقولون ان التأريخ لا يكون تاريخا بالمعنى المراد الا اذا أضفى عليه الادب الشيء الكثير من بيانه واسلوبه في التعبير عن الاشياء . وان مجرد الوصف العلمي الجاف للوقائع التأريخية ليس تاريخا . فالتأريخ على هذا الاساس هو وضع الحقائق التأريخية باسلوب رائع من الأدب الرفيع والخيال الراقي يحببها للنفس ويجعلها رقيقة تسبق المرء الى قلبه فتمتلكه عليه . وان أهمية الخيال ، من وجهة نظر هؤلاء ، لا تقل عن أهمية الاطلاع على صحة حوادث التأريخ . فللتأريخ اذن صفة عاطفية بالاضافة الى صفته الواقعية .

ان القول بعلمية التأريخ قول حديث العهد . غير ان التأريخ قديم قدم الانسان من حيث وقوع حوادثه . وما كتب عن التأريخ يرجع في قدمه الى الوقت الذي اكتشف فيه الانسان الكتابة والقراءة .

٥٠ اذا كانت كلمة علم Science في اللغة الانكليزية مشتقة من الكلمة اللاتينية Sciencia فيكون التعريف القائل « بأن العلم مجموعة من القوانين الثابتة » صحيحا . اذ أن الكلمة اللاتينية المذكورة تعني « المعرفة

الثابتة لمجموعة من القوانين والحقائق الثابتة . وعلى هذا الاساس لا يكون التاريخ علما لأنه يفتقر الى القوانين الثابتة التى تخضع لها حوادثه على الشكل الذى تخضع به الحوادث الطبيعية لقوانين الفيزياء والكيمياء . يضاف الى ذلك (كما سبق وذكرنا) بأن المؤرخ يؤرخ حوادث التاريخ بعد وقوعها بمدة . ولا يستطيع وضعها فى المختبر (كما توضع المواد الطبيعية) واخضاعها، للتجارب المعروفة فى الفيزياء والكيمياء . هذا الى أن المؤرخ (اذا صادف وكان جزءا من الحادثة التى يؤرخها او شاهدها مشاهدة عيانية كأن يشترك فى بعض المعارك او يشهد انقلابا عسكريا او سياسيا معينا) لا يستطيع السيطرة على تلك الحوادث (كما يسيطر الفيزيائى على مادته فى المختبر فيعدل سلوكها على الشكل الذى يريده) . يضاف الى ذلك ان هناك فرقا كبيرا بين تنظيم المعرفة (فى العلوم المضبوطة) وبين تنظيم المعرفة التاريخية اذ توجد فى العلوم المضبوطة (مثل الرياضيات) فروض معروفة ومسلم بصحتها . اما فى التاريخ فلا توجد مثل تلك المسلمات وانما توجد حوداث معينة وقعت تحت ظروف خاصة قد لا يحدث وقوعها مرة ثانية اذا ما تغيرت ظروفها . هذا الى ان الاستنتاجات (المبنية على المسلمات فى العلوم المضبوطة) يصح ان تصبح على شكل قوانين مثل القول بأن ٤ كتب + ٤ كتب من جنسها = ٨ كتب تحت جميع الظروف مهما كان نوع الكتب او حجمها بغض النظر عن اللغة التى تكتب بها تلك الرموز او الزمان الذى تجرى فيه تلك العملية الحسابية . اما الاستنتاجات فى التاريخ (ان وجدت) فتكون خاضعة (خضوعا كبيرا) الى الزمان والمكان والظروف التى وقعت الحوادث نتيجة لتأثيرها . هذه الفروق (فى المقدمات وفى النتائج) بين العلوم المضبوطة وبين المعرفة التاريخية تضمن فروقا فى نوع التنظيم للمعرفة نفسها . فالرياضى (عندما يحاول حل مسألة رياضية معينة) يحاول تلمس حلها عن طريق اخضاعها لقانون رياضى معروف . ومن ثم يسير بالحل (خطوة فخطوة) الى نتيجته النهائية . اما المؤرخ فيفتقر الى ذلك للاسباب التى ذكرناها .

٣٣٩

يستطيع المتتبع لتاريخ نمو العلم القول بأن البحث العلمى المنظم قد بدأ

من البحث فى امور أبعد ما تكون عن الانسان ، اذ بدأ كل من كاليلو وكبلر وكوبرنيكس ابحاثه التجريبية فى علم النجوم وفى سقوط الاجسام وفى مركز الارض بالنسبة للكون الذى هى جزء منه ، اذ كان التفكير السائد على عهدهم (وقد تحدر من فلسفة ارسطو) يذهب الى القول بأن الارض مركز الكون وأنها مسطحة الشكل وان الاجسام الثقيلة بطبيعتها تسقط على الارض عكس الاجسام الخفيفة التى تتصاعد الى طبقات الفضاء ، غير ان العلماء الثلاثة واتباعهم أفسدوا هذه الآراء عن طريق التجريب والبرهان العلمى المكشوف ، ومن علم النجوم تقدمت الطريقة العلمية ظافرة لتحقيق ظفر آخر مماثل فى حقل الفيزياء والكيمياء وبعد ان سجلت ظفرا لامعا فى هذين الحقلين دخلت تلك الطريقة فى صميم تكوين الانسان والكائنات الحية الاخرى عن طريق علمى الاحياء والتشريح ، وطريقة التجريب والتفكير الموضوعى السليم متجهة الآن لبحث الظواهر الاجتماعية والتأريخية المتعلقة بالافراد والجماعات .

غير ان هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيلها ولا يسهل التغلب على كثير منها ، أهمها :-

١ - تشبع كثير من الحوادث التأريخية بعوامل دينية وعنصرية وقومية تشبعا تختلف درجته باختلاف نوع الحادثة من جهة وأهميتها بالنسبة للباحث من جهة أخرى ، والناظر لبعض حوادث التأريخ قد لا يراها الا بعواطفه بالرغم من سلامة تفكيره وبصره ، ولا تتوقف دقة الرؤية حتى للاشياء المادية على سلامة عينى الناظر ووضوح الشىء المنظور فقط وانما تتعداها الى المكان الذى ينظر منه الشخص الى الشىء والى النقاط التى يركز فيها نظره أكثر من غيرها ، ويتعقد الامر دون شك عند بحث رؤية المرء للاشياء المعنوية مثل اصداره أحكاما معينة على حوادث التأريخ ، وتلعب اللغة دورا فعالا فى هذا الصدد ، فكثير من الكلمات تثير احساسات عاطفية تختلف درجاتها باختلاف مدلولاتها ومدى تعلق القارىء او السامع بتلك المدلات ، فالكلمات عيسى ومحمد وعمر وعلى وكثير غيرها كلمات من هذا القبيل ، كما وان انتقاء المؤرخ لبعض الكلمات لوصف حوادث تأريخية معينة قد يثير احساسات

التاريخية خاصة عند قارئيه (كاستبداله كلمة عصيان بكلمة تحرر مثلا) •
بالنواحي العاطفية لهذه الكلمات ومثيلاتها نعصمها من ان نمتد اليها
السنة النقد •

٢ ـ وهناك صعوبة ثانية تتعلق بعلمية التأريخ ـ هي النظر الى الحوادث
التاريخية نظرة يشوبها عنصر خلقي سواء أكان الأمر الخلقي متعلقا
بالاستحسان أم أنه متعلق بالاستقباح • أي أن الحوادث التاريخية لا ينظر
اليها المؤرخ نظرة موضوعية مجردة وانما هو (على الرغم من محاولته تجنب
ذلك) قد يستحسن وقوعها وينعتها بنعوت رقيقة او قد يستقبح ذلك الوقوع
وينعته بنعوت مستهجنة • ونظرة المؤرخين القدامى والمحدثين الى الثورات
والعصيان والاضطرابات كلها أمثلة من هذا القبيل • أما المشتغل بالظواهر
الطبيعية فلا يتعرض لشيء من هذا القبيل • فالكيميائي مثلا لا يستحسن اتحاد
ذرتين من الهيدروجين وذرة من الاوكسجين عند تكوين الماء ولا يستقبحه •
ولا يهمه من الاوكسجين مثلا عدم تفاعله مع بعض العناصر وتفاعله مع بعضها •
أنه لا يفعل ذلك لأن همه الوحيد هو وصف ما يشاهده وصفا دقيقا لا اصداره
احكاما معينة عليه • وبعبارة أخرى لا تدخل عواطف العالم في بحثه بينما
لا يستطيع المشتغل في القضايا الاجتماعية التجرد عن عواطفه مطلقا وانما
هو قد يستطيع السيطرة على بعضها والتخفيف من حدتها •

٣ ـ اما الصعوبة الثالثة المتعلقة بعلمية البحث التأريخي فهي ناتجة عن
ان المشتغلين في حوادثه يحاولون التوصل الى ما يسمونه طبيعة الاشياء •
لقد حاول عبثا قبلهم زملاؤهم الباحثون في الظواهر الطبيعية • ولم يتقدم العلم
تقدما محسوسا في بحثه للظواهر الطبيعية الا بعد ان خلع انصاره فكرة البحث
عن طبائع الاشياء وأهتموا عوضا عن ذلك بالبحث عن علاقاتها • فالعالم يحاول
في مختبرة وضع كثير من المواد والحقائق باشكال جديدة لاحداث علاقات
جديدة يستدل منها على خصائص تلك المواد • ويعزى تقدم علمي الفيزياء
والكيمياء هذا التقدم الكبير الى استطاعة المشتغلين فيهما ان يسيطروا على كثير
من المواد وان يجروا التغيرات التي يريدونها في علاقاتها • فالعلم اذن

لا يحاول البحث عن طبائع الأشياء بل يحاول دراسة سلوكها . وان احد عوامل تخلف التاريخ فى ناحية الدقة العلمية عن غيره من العلوم كما اسلفنا هو اهتمام المؤرخين فى البحث عن طبيعة الأمور لا عن علاقتها .

٤ ـ والصعوبة الرابعة المتعلقة بعلمية التاريخ هى تعقد الظواهر الاجتماعية وتشابكها من جهة وخضوع الانسان لها (لا خضوعها له) من جهة أخرى . أى أن الانسان فى بحثه للظواهر الطبيعية يبحث فى أمور يستطيع السيطرة عليها فيخضعها لمشيئته . اما فى بحثه للظواهر الاجتماعية فانه يحاول ولوج قوى هو خاضع لها . هذا الى أن الباحث فى الظواهر الطبيعية كما أسلفنا يستطيع تجريدها عن بعضها واحداث تغيير كبير فى علاقتها وسلوكها . اما الباحث فى الظواهر الاجتماعية فليس باستطاعته عمل ذلك نظرا لتداخل تلك العوامل تداخلا يستحيل فصله . فاذا سهل على المشتغل فى المختبر تحليل الماء الى عنصرين بسهولة فانه يستحيل على المؤرخ عزل أثر العامل الدينى عن أثر العامل الاقتصادى او الجنسى فى تقرير سلوك الافراد والجماعات[1] .

٥ ـ والصعوبة الخامسة ناتجة عن أن المؤرخ فى العادة لا ينتقى من الحوادث التأريخية الا الحوادث التى تلائمه ولا تثبت صحة وجهة نظر من لا يتفق معه . أى أنه ينتقى من الحوادث أهمها بنظره واذا حاول عرض وجهة النظر التى تخالفه مال (ولو بطريقة لا شعورية) الى وضعها بشكل يبين ضعفها وعدم وجاهتها . فالحوادث التأريخية ليست موجودة بالشكل الذى توجد فيه الظواهر الطبيعية ، كالشمس والنجوم والاوكسجين وما شاكلها انما هى موجودة بشكل يقرر أهميته المؤرخ نفسه . ولعل هذه الناحية تتضح

(١) اما ادعاء كارل ماركس بان اساس جميع المشكلات الاجتماعية انما هو اقتصادى بحت فتبسيط للتاريخ لا يقره العلم الحديث . ويصدق الشئ نفسه على قول دارون وسبنسر بان اساس المشكلات الاجتماعية هو التنازع على البقاء ، وعلى قول هنرى بركسن بان اساس ذلك هو الدافع للحياة ، وعلى قول فرويد بانه الدافع الجنسى ، وعلى قول ادلر بانه حب السيطرة .

كبيرة اذا ما قارنا نظرة الفيزيائى لحادثة سقوط شخص من بناء شاهق الى الارض بنظرة المؤرخ الى تلك الحادثة . فحادثة السقوط هذه من الناحية الفيزيائية حادثة خاضعة لقوانين سقوط الاجسام . غير أنها من الناحية التاريخية خاضعة لتفسير المؤرخ . فهى تختلف اذن بأختلاف المؤرخين . فقد يعتبرها بعضهم ناتجة عن أهمال فى حساب الشخص الذى وقع لمدى تحمل السقف الذى وقع منه او مدى اتزانه الجسمى الخ ... او أنها حركة قصد بها صاحبها الانتحار مثلا . فيكون الاختلاف فى تفسير هذه الظواهر كبيرا بين المؤرخ والفيزيائى مع العلم بانهما على اتفاق تام فى وقوع الحادثة . اذ يحاول الاول وصف كيفية وقوع الحادثة وعواملها الفيزيائية بينما يحاول الثانى تلمس اسباب وقوعها وعواملها النفسية والاجتماعية ومدى أثرها بالنسبة للمجتمع وللفرد .

يستطيع المرء ألا يعتبر التاريخ علما اذا كان المقصود بالعلم مشاهدة الحوادث مشاهدة موضوعية وتسجيلها بالشكل الذى يشاهد فيه الباحث سلوك النجوم ويسجله . كما ان المرء كذلك لا يستطيع ان يعتبر التاريخ علما بالمعنى الذى يستطيع الكيميائى اجراء تجاربه الموضوعية على المواد فى مختبرة . اننا نعتبر التاريخ علما بالمعنى الذى يعتبر فيه علم طبقات الارض علما . فكما ان المشتغل بعلم طبقات الارض يحاول اختبار المخلفات الارضية من احجار وبراكين وما شابهها ثم يدرسها فى الوقت نفسه محاولا الاستدلال منها على اعمارها والعوامل التى أثرت فيها والتغييرات التى اعترضتها . وكذلك المؤرخ يدرس المخلفات الاجتماعية للاستدلال منها على ما حدث فى الماضى . فالمؤرخ وعالم طبقات الارض يبحثان فى الحاضر من حيث مخلفات الماضى الموجودة فيه للاستدلال منها على الماضى نفسه . ولكن الفرق بينهما عظيم . فالجيولوجى يبحث فى أمور لا تمس عواطفه او قوميته او مذهبه الدينى او السياسى بينما يبحث المؤرخ فى أمور تمس تلك الظواهر فى الصميم .

والمسألة المتعلقة بعلمية التاريخ اذن ليست مسألة وجود حقائق تاريخية ثابتة (او عدم وجودها) ولا هى مسألة خضوع الحوادث التاريخية لقوانين

مضبوطة (او عدم خضوعها) ولا هي مسألة القدرة على ملاحظة الظواهر التاريخية ملاحظة موضوعية واجراء تجارب كيميائية او فيزيائية عليها (او عدم امكان ذلك) ان المسألة هي بنظرنا امكانية النظر الى الحوادث التاريخية بشيء كبير من التجرد واخذ اكبر كمية ممكنة من الادلة ووجهات النظر المتبادلة في بحث القضايا التاريخية .

غير ان عملا كهذا ليس سهلا وقد مرت الاشارة الى الصعوبات التي تعترض سبيل الباحثين فيه . ان المرء لا يستطيع التجرد عن عواطفه مهما حاول ذلك خصوصا في القضايا التي تمس تلك العواطف في الصميم . اذ يولد الانسان وليس له لغة وقومية او دين او أي معتقد من المعتقدات السياسية، وكلما نما الفرد ازداد أثر ثقافة مجتمعه ونظمه في الدين والاجتماع عليه . اذ يحاول المجتمع بشتى الوسائل تكوين صغاره على شاكلته في الدين والاجتماع . وتدريس التاريخ وسيلة من الوسائل الاساسية في هذا الشأن . يضاف الى تدريس التاريخ (على الشكل التي تقوم فيه المدارس) الاهتمام بتخليد اسماء عظماء البلد عن طريق اقامة الحفلات التذكارية وتسمية الشوارع وأقامة التماثيل وغير ذلك . ويميل المجتمع في العادة الى اعتبار اعمال عظمائه بعيدة عن مواطن الضعف ولا يسمح والحالة هذه ان تمتد اليها السنة النقد . وتختلف الامم كثيرا في مدى نقدها لحياة عظمائها . غير ان الواقع يشير الى انه كلما تقدمت الامم زاد اهتمامها بمعالجة نواحي الضعف في حياة عظمائها وقل تعظيمها لهم تعظيما مبنيا على العاطفة .

يكتسب الانسان مقاييسه في الحكم على قيم الاشياء من البيئة التي شاركها حياتها اكتسابا عاطفيا في أول الأمر ليس للتفكير دخل كبير فيه ويتشبع الانسان بعقائده الدينية وباحكامه التاريخية المبنية عليها تشبعا عاطفيا يصعب عليه كثيرا عند بلوغه درجة كبيرة من التفكير والنقد ان يتخلص منه تمام التخلص . واذا حدث ان استطاع المرء مناقشة بعض المسلمات التي فرضها عليه مجتمعه فان هناك رواسب في قرارة نفسه تأبى الا أن تتحدى التفكير الى حد بعيد . قليلون هم الاشخاص الذين يستطيعون ان ينتقدوا نقدا علميا اعز

[illegible] لديهم واكثرها سيطرة على نفوسهم اذ ان هناك ميلا فطريا يدفع الناس
الى الاستمرار في اعتناق ما سبق واعتنقه • ومرور الزمن على العقيدة يكسبها
[illegible] من القدسية • وعلى هذا يعتبر نقدها خروجا على الاداب العامة وطعنا في
المبادىء الانسانية • ويحاول الانسان في العادة التمسك بجميع الوسائل
[illegible] مهما كانت تافهة بنظر غيره للدفاع عن عقيدة سبق له واعتنقها دون
مناقشة او تفكير • ولما كانت عقائد الناس كثيرة ومختلفة في الدين وفي
السياسة خضع كل فريق لعقائده خضوعا منقطع النظير • وفرض كل فريق
كذلك صحة عقائده طاعنا ولو من طريق خفي بعقائد غيره من الناس • ان هذا
بنظرنا هو منشأ كثير من الاختلافات والحروب بين البشر • اذ ان الناس
يصبحون الآن تسيرهم عقائدهم بهذا الاتجاه او ذاك • وكثير من الحجج
التي يقدمونها للدفاع عن عقائدهم انما هي وسائل استنبطت بعد ان سبق
للعقائد ان سيطرت عليهم • ولو ان أمرءا يدافع عن عقيدة معينة ويهاجم غيرها
قدر له ان يتشبع بالعقيدة التي يهاجمها لما اعوزه على ما نظن ايراد حجج كثيرة
لاثبات صحتها •

هذه ملاحظات سريعة على التأريخ وعلاقته بالعلم • وسنبحث في جزء
مقبل علاقة التأريخ بالتربية وبالتعليم •

نوري جعفر